خطبة صلاة الجمعة 7/ 2/ 2020 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(آمن روعاتنا)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ [الجن: 1] قال ابن كثير: يهدي إلى الرشد أي يهدي إلى السداد والنجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ [الكهف:10] قال المفسرون: معنى قوله هيئ لنا من أمرنا رشدا، يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق. والرَشَد والرُشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من يطع الله ورسوله فقد رَشَد، ومن يعصهما فإنه لا يضرُّ إلا نفسَه، ولا يضرُّ الله شيئا**».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة الرابعة عشرة في سلسلة (**دليل إرشادي**)، تتناول كل خطبة منها مشكلة اجتماعية أسرية أو مالية أو أخلاقية وقع فيها عددٌ منا وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتقدم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى تعينه على تبصر طرق الحل، وتمكنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزة تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة؛ لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذْ الاختلاف بين البشر سنة، والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: **(آمن روعاتنا)**

المسألة:

في هذه الشدة التي نعيش، والألم الذي يحيط بنا، والضيق النفسي والمادي، ومع تكالبِ الأمم علينا وظلمةِ الطريق وعدمِ رؤية آخره، أكاد أنهار أمام أولادي، أنا أب لأربعة؛ ما بين ذكور وإناث، صبرت وصبَّرتُ من حولي، ولكنَّ قلةَ ذات اليد وصعوبةَ تأمين متطلبات بيتي وقسوةَ الأخبار التي نسمع وشدةَ الأحاديث والأحداث التي يُسِرُّ الناس بها لبعضهم توشك أن تسقطني، وأخاف أن يسقط من ورائي بسقوطي، فأرشدوني!.

الدليل الإرشادي:

في الدليل ثلاث فقرات: الابتلاء سنة كونية، أهم حِكمِ البلاء الرجوع إلى الله تعالى، معالجة الضيق بالأذكار.

أولاً: الابتلاء سنة كونية:

فسنَّة الله الجارية في عباده عامَّةً، وفي المؤمنين خاصَّةً الابتلاء والاختبار، وهذه السُّنَّة يتبعها عقلاء الأرض وحكماؤها في معاملاتهم الأرضيَّة، فأنت لا تُرَقِّي موظَّفاً عندك حتَّى تختبره وتمحِّصه، ولا تثق بإنسان وتُقرِّبه منك حتَّى تمتحنه وتبتليه، ولا تحوز شهادة دراسية جديدة حتى تجتاز الامتحان بنجاح، وكلَّما علت الشَّهادة صعُب الامتحان أكثر.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [الإنسان:2] وقال سبحانه: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:1-3] وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155].

كان سيدنا خبّاب بن الأرت من السابقين الأولين إلى الإسلام، كان مشركو مكة يعذبونه ليعود عن دينه مع صهيب، وبلال، وعمار، وسمية أم عمار، في الله، ألبسوهم أدراع الحديد، ثم صهروهم في الشمس.

قال ابن الأثير في أسد الغابة: (كان خباب قينا يطبع السيوف، وكان رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يألفه ويأتيه، فأخبرت مولاته بذلك، فكانت تأخذ الحديدة المحماة فتضعها عَلَى رأسه، فيغمى عليه، واشتكى خباب يوماً من شدة الابتلاء وصعوبة الامتحان لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن خَبَّابٍ قالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بِبُرْدٍ لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ فَجَلَسَ مُحَمِّراً وَجْهَهُ، فَقَالَ: " قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ يُجَاءُ بِالْمِيشَارِ فَيُجْعَلُ فَوْقَ رَأْسِهِ، مَا يَصْرِفُهُ عن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ وَعَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ عن دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَ مَوْتَ لا يَخْشَى إِلا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ".

سأل عمر بن الخطاب خباباً رضي الله عنهما يوماً عما لقي من المشركين فقال: يا أمير المؤمنين، انظر إِلَى ظهري. فنظر، فقال: ما رأيت كاليوم ظهر رجل، قال خباب: لقد أوقدت نار وسحبت عليها فما أطفأها إلا ودك ظهري).

فالابتلاء سنة كونية ماضية لنا ولغيرنا، وإنها أيام تُدالُ بين الناس، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:214].

فبعد كلِّ محنةٍ منحة، وبعد كلِّ بليةٍ عطيَّة، وبعد كلِّ شِدَّةٍ شَدَّة، وبعد كلِّ ترحٍ فرح، و﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الشرح: 6].

والمتوقع من المبتلى أن يصبر على البلاء ويتقيَ ربه في السراء والضراء ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:90].

ثانياً: أهم حكم البلاء الرجوع إلى الله تعالى:

لأن الأصل في البلاء أن ينبه العاصي ليتوب، ويذكر الناسي ليؤوب، ويصدم الغافل ليصحو ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 42، 43]، فلو رجعوا بجميل التضرع والتوبة

وحسن الابتهال والتملق لكشفنا عنهم المحن، ولأتحنا لهم المنن، ولكن صدّهم الخذلان فأصروا على تمردهم، فقست قلوبهم وتضاعفت أسباب شقوتهم.

فللابتلاء والاختبار حِكَمٌ عديدةٌ، منها تصفية الصَّفوف، والإعداد الحقيقي لتحمُّل الأمانة، وتمييز الخبيث من الطَّيب، ورفع المنزلة والدَّرجة عند الله تعالى، وتكفير السِّيئات، ومعرفة عِزّ الرُّبوبية وذِلّ العبوديَّة، ورحمة أهل البلاء، ولكن أجلَّ حكمِ البلاءِ وأعظمِها الإنابةُ إلى الله تعالى بالتوبة والرجوع إليه بالضراعة.

ورث مع أخواته البنات وأمهم عقاراتٍ وأموالاً منذ عشر سنوات، وزّع الأخ الأموال حسب القسمة الشرعية للإرث، وأبقى العقارات على ما هي عليه، فهم شركاء على المشاع فيها، يستفيد منها وحده، ولا يرضى التخارج والتخاصص منذ ذلك الحين، إنّ هذا الأخ لم يعِ درس البلاء الذي نزل، وكان المتوقع منه أن يسارع بالتخارج والتخاصص لينال كل وريث حقه، وليكون من الذين يتضرعون إلى الله بالتوبة ويعودون إليه بالإنابة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 42، 43].

اشترى شقة سكنية قبل الأزمة بخمسمائة ألف وأنقد البائع الثمن كاملاً واستلم شقته، واتفقا على الفراغ في يوم محدد ويتحمل المشتري نفقات معاملة الفراغ، ونزل بالبلد ما نزل، وسافر من سافر، وفُقِد من فُقِد، وضاعا عن بعضهما، قبل أشهر وجده واطمأن كل منهما على الآخر، وطلب المشتري من البائع أن ينزلا معاً للطابو لإجراء معاملة الفراغ القديم، فامتنع البائع إلى أن يعطيه المشتري مليون ليرة سورية بحجة أن البيت غلا اليوم سعره عشرين ضعفاً!.

إن هذا البائع معتدٍ على مال غيره، فالعقد تم كاملَ الأركان والشروط، وغلاء البيت ورخصه عائد للمشتري وليس للبائع من ذلك شيء، اللهم إلا أن يلتزم المشتري بنفقات معاملة الفراغ كما اتفقا.

إن هذا البائع لم يعِ درس البلاء الذي نزل، وكان المتوقع منه أن يسارع بإتمام معاملة الفراغ للمشتري من دون أن يأخذ شيئاً؛ ليكون من الذين يتضرعون إلى الله بالتوبة ويعودون إليه بالإناب ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 42، 43].

إنّ أهم حكم البلاء الرجوع إلى الله تعالى بترك ما حرم الله، والتزام فرائض الشريعة ونوافلها.

ثالثاً: معالجة الضيق بالأذكار:

روى الإمام مسلم بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: «**لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم**»، وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أهَمَّهُ أمْرٌ رفعَ رأسَهُ إلى السماء، وقال: سبحان اللهِ العظيم**» وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: «**كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا كَرَبه أَمر، يقول: يا حيُّ يا قيُّوم، برحمتك أستَغيث**».

وروى أبو داود عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها: قالت: قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**ألا أُعَلِّمُكِ كلماتٍ تقُولينَهُنَّ عند الكَرْب؟: اللهُ، اللهُ رَبِّي لا أُشرك به شيئاً**» وفيه عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**دَعَواتُ المَكْروب: اللَّهُمَّ رحمتَك أرجو، فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصلِح لي شَأني كلَّه، لا إله إلا أنتَ**».

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، قال: «**نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا**»، قال: "فضرب الله عز وجل وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم الله عز وجل بالريح".

وروى أبو داود في سننه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال «**يا أبا أمامة! ما لي أراك جالسا في المسجد في غير وقت صلاة؟**» قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله، قال: «**أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله همك وقضى عنك دينك**» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**» قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله تعالى همي وغمي وقضى عني ديني.

فذكر الله تعالى يطمئن له الفؤاد ويرتاح عنده القلب وينشرح فيه الصدر وتسكن به النفس.

وبعد أيها الإخوة:

نقول للأخ صاحب المسألة: هذه الآلام التي تعصف بالناس -وأنت واحد منهم- من الابتلاء الذي هو سنة الله في عباده، ومن أهم حِكمه أن يراجع كل منا نفسه فيرد الحق لأصحابه إن كان ظالماً أو يؤدي حقوق الله عليه إن كان مقصراً، وأن يثبت على الخير إن كان مجداً متقياً، ثم الزم مجالس الذكر

وأدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاء؛ فبها يسكن قلبُك ويطمئن بإذن الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

إنّ أخطر الأعاصير هو الإعصار الذي يعصف في داخلك، ولن يهدأ إلا بسكينة الذكر والإيمان، والله أعلم.

ختاماً – أيها الإخوة:

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»**.

والحمد لله رب العالمين